الخيـــال

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

الخيال — وهو القدرة على انتزاع شتى الصور من الواقع المشاهد واستحضارها فى الذهن فى أى وقت ، والتصرف فيها على مختلف الأشكال والأوضاع — عنصر من أهم عناصر الأدب مهما اختلفت أنصبة الأدباء منه ، وهو أساس التشبيهات والمجازات ، ولولاه لالتزم الفكر الانسانى الواقع المتحجر أيما التزام

وللخيال فى الأدب وظائف شتى : فالخيال الصحيح يعين الأديب على إبراز الحقائق بشتى الوسائل ، ويقدره على سبك موضوعه سبكا فنياً لا شذوذ فيه ، وعلى نبذ ما لا حاجة به اليه من تفصيلات قد تشوه ما هو بسبيله ، ويساعده على إضفاء ثوب من الجمال على ما ينشئ

وللخيال يد طولى فى الأدب الانجليزى ؛ فالأديب الانجليزى غزير العاطفة ، إذا جاشت أطلق لها العنان واسترسل مع خياله ، وأثار به منظر طبيعى أو غناء طائر أو ذكرى طارئة أو أثر من آثار الغابرين أو أسطورة من أساطيرهم ، أو غير هذا وذاك كله ، شتى الخيالات والأحلام والأطياف ، وتناهت به عاطفته إلى حدود الأمانى وآفاق الماضى والمستقبل ، وهذا الاسترسال للخيال إذا أثارته فكرة رئيسية هو مرجع وحدة القصيدة فى الانجليزية

وهناك عدا هذا الخيال المنبث فى كل مناحى الأدب أغراض خاصة من الأدب قوامها وهيكلها الخيال ، يجمع أطرافها وينهض بكيانها ، ويوثق وشائجها ، وهذه هى الملاحم الطوال فى الشعر والقصص الممثلة أو المقروءة شعراً أو نثراً ، ففى هذه لا يلتزم الأديب الواقع المجرد ، بل يفترق عنه افتراقا جسيما ، ويصوغ من شتى أفكاره وتجاربه وأمانيه عالماً يجيش بالحياة والحركة ، ويموج بالعواطف والنوازع ، ويفيض بالجمال والامتاع

والأدب الانجليزى حافل بهذه الضروب القائمة على أساس من التخيل المحض ؛ فهناك ملاحم ملتون وهاردى ، وفيها يستعرض كل من الشاعرين مشاغل عصره ويبحث آراءه وينفث لواعج نفسه ؛ ومن طبيعة أشعار الملاحم أنها تعج بالمردة والجبابرة والآلهة ، وتحفل بخوارق الأعمال وجسائم البطولة ، وهى على رغم هذا كله لا تخرج عن عالمنا الانسانى ولا تتفلت النفس الانسانية ، بل تظل نوازع تلك النفس ومشاغلها هى الهدف الوحيد الذى يرنى اليه ناظموها ، إذ فيها يتخذ أولئك الأرباب والجبابرة طبائع الناس وميول الأفراد وإن فاقوا البشر قوة وعظما ، ومن هنا يتأتى للشاعر أن يبسط آراءه فى ميدان متسع وإلى مدى فسيح ، فالخيال هنا لا يعدو الحقيقة ، وإنما يوضحها أحسن توضيح ، فضلا عما يمتع النفس به من قصص متسق وجمال وجلال

وفى الأدب الانجليزى مالا يعد من قصص فى الشعر أو النثر ممثلة ومقروءة . وقوام القصة بطبيعتها الخيال ، وإن تراوح نصيبها منه ؛ فهناك القصص الواقعية التى تلتزم الحقيقة إلى أكبر حد مستطاع وتصور المجتمع الحاضر تصويرا دقيقاً ، كقصص هاردى ودرامات جالزوردى ؛ وهناك القصص التى ترمى إلى أغوار الماضى وتدور حول عظيم من رجال التاريخ أو الأساطير ، من طموح يبيع نفسه للشيطان ليعينه على مطامحه ، إلى دائن يتقاضى دينه من لحم غريمه ودمه ، كما فى روايات شكسبير ومارلو وغيرهما ؛ كما أن هناك القصص التى تتطاول إلى آفاق المستقبل ، وفارس هذه الحلبة ولز

هذه الأغراض والأوضاع التى سداها ولحمتها الخيال غير ظاهرة فى الأدب العربى : فلا قصص ولا ملاحم . والمقامات وأشباهها إذا زج بها فى هذا المجال بدت هزيلة مجتداء تدعو الى السخرية ، فأولى بها أن تظل حيث أراد كاتبوها وقصدوا بها من غرض بعيد عن القصص . والأثر الوحيد الذى يعتد به — بل يفتخر به — فى هذا الباب رسالة الغفران : ففيها من آثار الخيال ومتعاته ما لا نظير له فى الأدب كله . على رغم اكتظاظها بأخبار الأدباء ومسائل الأدب والنحو

وفضلاً عن انعدام هذه الفنون الخاصة فان نصيب الأدب العربى عامة من الخيال ضئيل إذا قيس بنصيب الأدب الانجليزى

منه ، فالأديب العربى كان شـديد الحرص على الواقع يلزمه فى موضوعه وأفكاره ، شديد الاختصار فى مقاله وتعبيره عما يحس ، يعبر عن تلك الأفكار أشتاتاً كلما عنّ له حافز الى الكتابة ، لا يدخر أفكاره ولا يربط منها حاضراً بماض ، بل يرسلها على السجية أبياتاً محكمة النسج موجزة البيان . فالفكرة التى تخطر للأديب الانجليزى فيحوك حولها قصة تربط ما يتصل بها من أفكار ، وتنشئ حولها شتى الصور المنتزعة من الحياة ، يكتفى الأديب العربى بصوغها فى بيت شعر محكم يذهب مثلاً ثم « ينام ملء جفونه »

فكبح عنان الخيال هذا سبب انعدام القصص وكثرة الحكم والأمثال فى الأدب العربى . وهو كذلك سبب توسط طول القصائد وعدم تراوحها بين الملاحم الطوال والمقطوعات الصغار ، ثم هو سبب اكتظاظها بالأفكار لا يربطها رباط جامع من خيال وثيق

ولا ترجع ندرة آثار الخيال فى الأدب العربى إلى ضعف ملكته بين الشعوب العربية ، فان كثيراً من تلك الآثار تدوولت فى العامية دون الفصحى بين الشعوب الناطقة بالضاد ، وإنما ترجع تلك الندرة الى التقاليد الجامدة الشديدة التى تسلطت على الأدب العربى لظروف خاصة سبقت الاشارة إليها فى كلمات ماضية : من محاكاة للأدب القديم — وهو نادر آثار الخيال لأنه أدب بدائى — ومجانبة للآداب الأخرى ولا سيما الأدب الاغريقى

وليس أدل على أثر الثقافة الاغريقية فى تربية الخيال من أن اطلاع العرب على جمهورية أفلاطون حدا ببعض فلاسفتهم الى محاكاته فى تخيل الدولة المثلى ، فكان من ذلك « المدينة الفاضلة » و « حديث حى بن يقظان » وغيرهما ، مما هو داخل فى موضوع الفلسفة لا الأدب ، فلو درس العرب أدب الاغريق دراستهم لفلسفتهم لكان ذلك أثره المحتوم

فالأدب الاغريقى حافل بالخيال البعيد المرامى ، ملىء بالعوالم الزاخرة بشتى العظائم والمحاسن ، واغتراف الأدب الانجليزى من مناهله هو الذى أمده بفيض من الخيال لا ينفى : ونَصْب أمامه مذاهب التخيل وأشكاله ، وأمده بالخرافات والأقاصيص العديدة تحاك حولها أعمال الخيال فى الشعر والنثر ، وتفعم بصور الجمال وترصع بالآراء النقدية والنظرات الثاقبة فى شؤون العالم وأحوال المجتمع ، وتلك لعمر الحق مادة الأدب وصميمه

أما الأدب العربى فظل الواقع قبلته والحاضر ديدنه ، وحين ضرب فى مرامى الخيال فى الغزل الاستهلالى والمكرمات المصطنعة ينسبونها الى الممدوحين والمرثيين إنما كان يفعل ذلك مطمئناً إنه يحذو حذو المتقدمين ولا يخرج عن الحدود الرسومة للأدب فى عهودهم ، فجاء ذلك الخيال غثاً ممجوجاً لا يتجاوز جانب الأوهام والتلفيقات الى جانب التعبير الصادق عن الحقيقة العميقة

وبينما أساغ الأدب العربى هذا الخيال الغث المتكلف نبذ ضروب الخيال المطبوع الصادق الذى يمت الى الحياة والذى هو عماد القصة النثرية والشعرية ، فترفّع عن ذلك تاركا إياه للعامة يروون به غلتهم ، تلك الغلة التى يشعر بها كل انسان وتنزع به الى القصص والى الخيال

فتحى أبو السعود

لجنة التأليف والترجمة والنشر

تاريخ المسألة المصرية

EGYPT'S RUIN

أصدق كتاب فى تاريخ مصر ، ألفه تيودور رتشتين مكاتب اللواء المالى وصديق المرحومين مصطفى كامل باشا ومحمد فريد بك ، وكتب مقدمته السير ولفرد اسكاون بلنت صديق مصر الحميم ، ويمتاز بدقته وأمانته التاريخية وإنصافه الأمة المصرية ودعوته إنجلترا أن تبر بوعودها وتجلو عن وادى النيل لخيرها وخير الانسانية . وهو كما قال السير بلنت : « ثمرة جهد عظيم ، بذله عقل شديد الملاءمة لموضوعه : لما طبع عليه من الدقة المتناهية ، ولاحاطته بالعوامل الخفية التى تسيطر على الشؤون المالية الأوربية ، والتى تنذر انجلترا بزوال ملكها » . ترجمه الأستاذان عبد الحميد العبادى ، ومحمد بدران . ويطلب من اللجنة والمكاتب الشهيرة ، وثمنه عشرون قرشاً